أما القول بأن الناحية الاقتصادية كانت هى الدافع فهو قول لا يقام له وزن عند من يعرف الإسلام والمسلمين فى فجر الإسلام ويكفينا أن نقول: إن المسلمين قد ارتفعت حالتهم الاقتصادية وعلا مستواهم المعيشى حتى إن عمر قد فرض العطاء لكل مولود فى الإسلام حتى المنفوس (الطفل الحديث الولادة) مما اعتبره الباحثون الحادثة الأولى فى تاريخ العالم[١].

فلو كان الدافع ضيق العيش لكانوا قد رضوا بما وصلوا إليه مما لم يصل إليه غيرهم وهم الذين طرقوا أبواب القسطنطينية فى زمن معاوية لفتحها وقد كان فى قبضتهم خير أجزاء المعمور من هذا العالم فهل ابتغوا من وراء ذلك عرض الدنيا!!

ألم يوضح ذلك عمر فى رده على معاوية حينما استأذنه فى غزو الروم بحرًا إذ قال: والله لمسلم واحد أحب إلىَّ مما حوت الروم.

وقوله حينما أراد المسلمون فتح ما وراء السواد: حسبنا من الريف السواد وإنى آثرت سلامة المسلمين على الأنفال[٢] فأرض الروم كلها بما حوت من خيرات لا تساوى مسلمًا واحدًا، وسلامة المسلمين أفضل من أنفال فارس.

فليس الدافع إذن الخوف من ردة ثانية أو الناحية الاقتصادية ولكنها العقيدة التى ملكت عليهم السمع والبصر.

بدء الفتوح الإسلامية

فى أواخر السنة الحادية عشر من الهجرة كان أغلب المرتدين قد راجعوا الإسلام وهدأت الحال فى معظم الجزيرة العربية فبدأ بعض الأبطال من المسلمين يغيرون على أطراف العراق من ناحيتى الحيرة والأبلة[٣] فإذا طلبوا أمعنوا فى الصحراء وأصبحت لهم بذلك جرأة وضراوة فى الإغارة على أطرف البلاد الخاضعة للفرس وكان فى مقدمة هؤلاء الأمراء الأبطال المثنى ابن أبى حارثة الشيبانى.

---

(١) راجع الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٧٨، الإدارة العربية للحسينى ص ١١٦.

(٢) راجع الطبرى (٣/ ٣١٦) وما بعدها.

(٣) الأبلة بلدة على شاطئ دجلة فى زاوية الخليج الذى يدخل إلى مدينة البصرة والحيرة مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة.

أرسل المثنى إلى أبى بكر يعلمه ضراوته بفارس ويسأله أن يمده بجيش لغزوها وفى هذا الوقت الذى وصل فيه ذلك الكتاب لأبى بكر كان خالد قد فرغ من أمر بنى حنيفة ومقيما فى وادى الوبر فكانت الفرصة سانحة أمام الخليفة لندب فاقئ عين الردة ومنكس أعلام الفتنة لفتح السواد والبدء فى إزالة «إمبراطورية» الأكاسرة.

وفى المحرم من السنة الثانية عشرة أرسل إليه أبو بكر يأمره بغزو الفرس وأن يبدأ بثغر الأبلة بكتاب يقول فيه: «أن سر إلى العراق حتى تدخلها وابدأ بفرج الهند وهى الأبلة وتألف أهل فارس ومن كان فى ملكهم من الأمم»، كما أمر عياض بن غنم أن يغزوها من الشمال وأن يبدأ بالمصيخ[1] وأمرهما أن يستنهضا من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإسلام وألا يستعينا بمرتد وأن يسيرا بمن يحب ولا يستكرها أحدًا فانفض عنهما كثير ممن كان معهما.

موقعة ذات السلاسل

كتب خالد إلى المثنى وإلى غيره من الأمراء باللحاق به وأن يواعدوا جنودهم الأبلة ليوم قد سماه لهم وقبل أن يسير إلى العراق أرسل إلى هرمز -صاحب ثغر الأبلة- كتاب إنذار يقول فيه «أما بعد فاسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».

استخلف خالد على اليمامة سمرة بن عمر العنبرى وسار فى جيش بلغت عدته بعد أن انضم إليه جند المثنى وغير ثمانية عشر ألفًا، ولما قارب العدو جعل الجيش ثلاث فرق وحملهم على أن تسلك كل فرقة طريقًا: فرقة مع المثنى وهى فى المقدمة وتلتها فرقة عليها عدى بن حاتم، وخرج خالد بعدهما وواعدهما الحفير[2] ليجتمعوا به ويلقوا عدوهم.

---

(١) المصيخ بين حوران والقلت.

(٢) الحفير ماء لباهلة بينه وبين البصرة أربعة أميال.

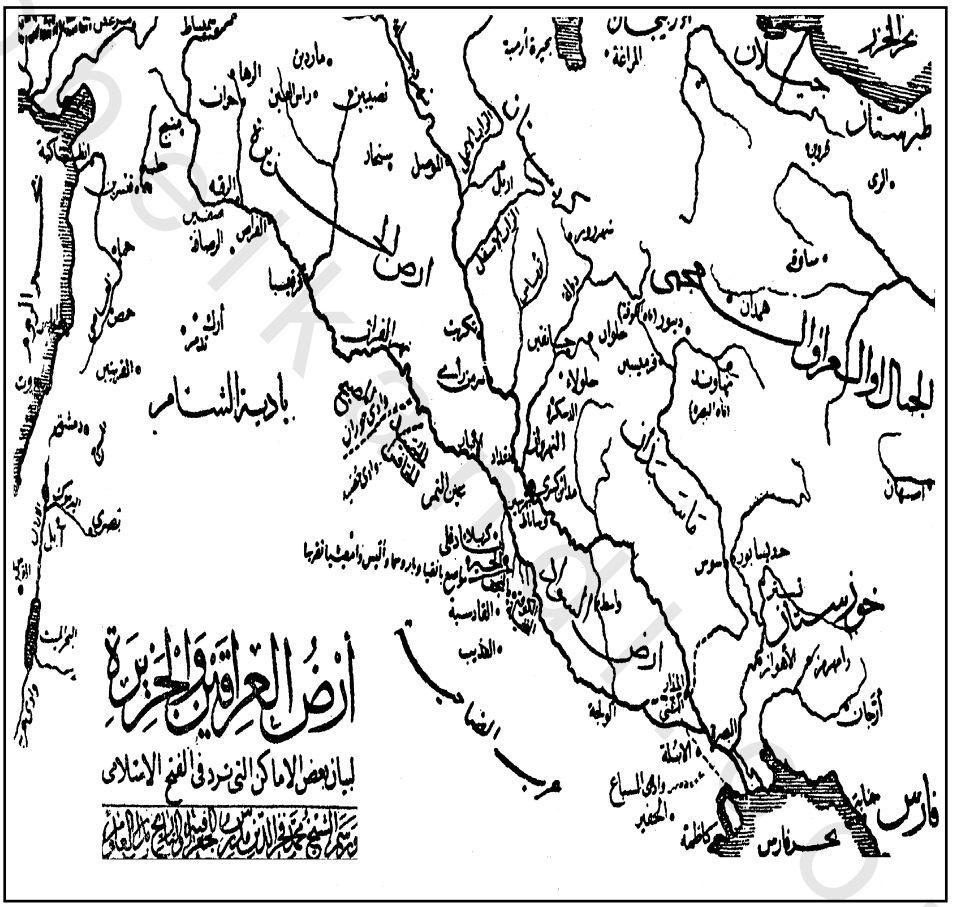
أرض العراقين والجزيرة
لبيان بعض الاماكن التي ترد في الفتح الاسلامي
بادية الشام
الجبال والعراق
خوزستان
فارس
طبرستان
الري
همذان
اصبهان
الموصل
بغداد
الكوفة
البصرة
واسط
الحيرة
القادسية
الحجاز
نجد
عمان
البحرين
سجستان
كرمان
مكران
الاهواز
سوس
جنديسابور
تستر
دجلة
الفرات

سمع هرمز بمسير خالد فكتب إلى أزدشير ملك الفرس بالخبر ولما علم بأن المسلمين تواعدوا الحفير سبقهم إليه فعدل خالد عنها إلى كاظمة فسبقه هرمز إليها ونزل على الماء واختار الموقع الملائم لجيشه ونزل خالد على غير ماء فقال له أصحابه فى ذلك فقال: «حطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء فلعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين».

لاقى المسلمون أعداءهم ودعا هرمز خالدًا للمبارزة واتفق مع أصحابه على الغدر به فبرز إليه خالد فاحتضنه وقتله وانهزم الفرس وركب المسلمون أكتافهم وجمع خالد الرثاث «الأمتعة» وفيها السلاسل التى كانوا قد اقترنوا بها لئلا يفروا فكانت وقر بعير (ألف رطل)فسميت الموقعة ذات السلاسل. وعامل خالد الفلاحين بالرفق واللين فحفظوا له ذلك وأرسل إلى أبى بكر بالفتح والخمس فنفله أبو بكر قلنسوة هرمز(١).

المذار

أجمع الفرس أمرهم وتجمعوا بالمذار بقيادة قارن بن قريانس فنهض إليهم خالد حتى التقى بهم وهو على تعبئة فاقتتلوا على حنق وحفيظة ودعا قارن للمبارزة فاستبق إليه خالد ومعقل بن الأعشى فسبقه معقل إليه فصرعه وانهزم الفرس وقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة قدرت بثلاثين ألفا ولولا أنهم عبروا إلى الجهة الشرقية للفرات وضموا السفن إليهم لأفناهم المسلمون عن آخرهم.

غنم المسلمون فى هذه الموقعة غنائم كثيرة حتى زاد منهم الفارس على ثلاثين ألفا وصار الفلاحون ذمة لهم وقسم خالد الأنفال ونفل أهل البلاء وتبحبح المسلمون وصارت كل واقعة أنكى على الفرس من التى قبلها وأسر فى هذه الواقعة يسار والد الحسن البصرى الإمام التابعى الكبير.

---

(١) كانت مفصعة بالجواهر وقيمتها مائة ألف وكانوا يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم فمن تم شرفه فقيمة قلنسوته مائة ألف.

الولجة[1]

وصل نبأ النكبة فى المذار إلى أردشير فبعث الأندرزغر على رأس جيش كثيف وأردفه بجيش آخر عليه بهمن جاذويه وفصل الأندرزغر عن المدائن حتى أتى الولجة وانضم إلى صفوف الفرس كثير من نصارى العرب.

بلغ خالدًا -وهو بالثِّنْى- تجمع الفرس ونزولهم الولجة فأذن بالمسير إليهم على تعبئة بعد أن خلف سويد بن مقرن ليحمى ظهره. ولما شارف الولجة جعل جيشه فرقا ثلاثا: تقدم هو بإحداها يلقى بها عدوه والثنتين جعلهما كمينين له فى ناحيتين.

التقى الجمعان فى صفر واقتتلوا قتالا شديدًا حتى نفد الصبر واستبطأ خالد كمينيه وفيما هم على ذلك إذا بالكمينين يكتنفان الفرس من ناحيتين فانهزموا وولوا الأدبار ومضى الأندرزغر فى هزيمته حتى مات عطشا. وأصيب فى هذه الموقعة كثير من العرب المتنصرة من بكر بن وائل فغضب لهم نصارى قومهم وكاتبوا الفرس وواطئوهم على حرب المسلمين فكان ذلك سببًا فى موقعة أليس.

أليس[2]

انضم نصارى العرب إلى الأعاجم وقائد الجميع بهمن جاذويه ولكنه آثر أن ينيب عنه جابان ليذهب إلى الملك ليطلعه على جالية الأمر فنهد خالد إلى المجتمعين بأليس وهو على تعبئة وقد أعدوا طعامهم فأظهروا عدم الاكتراث بخالد ولكنه أجهضهم عن طعامهم واقتتلوا قتالا شديدًا وحرب المسلمون عليهم فكشفوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة قدرت بسبعين ألفا وأمعن خالد فى قتلهم حتى اختلط دمهم بالنهر برًّا بيمينه التى كان قد حلفها وخلفهم المسلمون على طعامهم ونفلهموه خالد اقتداء برسول الله ﷺ يوم خيبر وبعث إلى أبى بكر بالفتح والأخماس.

---

(١) الولجة بأرض كسكر مما يلى البر.

(٢) أليس فى أول أرض العراق من ناحية البادية من الشمال من المذار من أرض كسكر.

أمغيشيا

نهض خالد حتى أتى أمغيشيا فوجد أهلها قد جلوا عنها وأعجلوا عما فيها فأمر بهدمها وهدم كل شيء كان فى حيزها وأصاب المسلمون فيها ما لم يصيبوا مثله منذ موقعة ذات السلاسل فقد بلغ سهم الفارس ١٥٠٠ درهم سوى أنفال أهل البلاء.

ولما وصلت الأخماس والفتح لأبى بكر وبلغه ما صنع خالد والمسلمون قال فى خالد قولته الخالدة «يا معشر المسلمين عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله (قطع اللحم الوافرة المختارة) أعجزت النساء أن يلدن مثل خالد؟» وكان الاستيلاء على أمغيشيا توطئة لفتح الحيرة.

الحيرة[١]

بلغ الأزاذبة مرزبان[٢] الحيرة ما كان من خالد فى أمغيشيا وأليس فعلم أنه غير متروك فاستعد للحرب وقدم ابنه أمامه وأمره بسد الفرات وتفجير الأنهار التى تأخذ منه.

خرج خالد من أمغيشيا وحمل الرجل فى السفن مع الأنفال والأثقال فلم يفجأه إلا السفن جوانح فارتاع لذلك وسأل عن السبب فقال له الملاحون: أن الفرس قد فجروا الأنهار وسدوا الفرات فسلك الماء غير طريقه فتعجل خالد فى جريدة من الخيل نحو ابن الأزاذبة وسبق الأخبار ولقيه وجنده على فم فرات بادقلى فأوقع بهم وفجر الفرات وسد الأنهار فسلك الماء سبيله. ثم سار حتى نزل بين الخورنق والنجف، فهرب الأزاذبة من غير قتال لما دهمه من قتل ابنه وموت أزدشير. ثم تقدم خالد حتى نزل بين الخورنق مشرفًا على الحيرة وحاصرها وكان أهلها قد تحصنوا بالقصور والقلاع وبعد مناوشات وقتال رأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب مع المسلمين فمالوا إلى الصلح وأول من طلبه منهم

(١) الحيرة مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة.

(٢) المرزبان بضم الميم والزاى هو الفارس الشجاع المقدم على القوم وهو معرب ومعناه حافظ الثغور.

عمرو بن عبد المسيح ثم تبعه بقية الرؤساء وأهدوا له الهدايا فصالحهم خالد على الشروط الآتية:

١- أن يؤدوا جزية مقدارها ١٩٠ ألف درهم.

٢- أن يلوا إدارة شئون مدينتهم بأنفسهم.

٣- أن يتولى المسلمون الدفاع عنهم.

وهذه أول معاهدة أجنبية للمسلمين، وبعث خالد بالفتح والهدايا لأبى بكر فقبلها على أن تكون من الجزاء. وكتب إلى خالد أن احسب لهم هديتهم من الجزاء واتخذ خالد الحيرة قاعدة لأعماله الحربية فى العراق فكانت بذلك أول عاصمة للمسلمين خارج جزيرتهم.

ولما صالح أهل الحيرة خالدًا جاءه صلوبا بن نسطونا صاحب قس الناطف فصالحه على بانقينا وباروسما وضمن له ما عليهما وعلى أرضيهما من شاطئ الفرات واعتقد لنفسه وقومه على عشرة آلاف سوى خرزة كسرى.

ولما رأى دهاقين البلاد أن الأمر قد استقام بين خالد وأهل الحيرة أتوه فصالحوه على ما بين الفلاليج إلى هرمزجرد، على ألفى ألف درهم إلا ما كان لآل كسرى ومن لف لفهم وأبى الدخول فى الصلح.

غلب خالد الفرس على خير شقى السواد وجعل الحيرة مقرّاً لقيادته ومعقلا لجيوش المسلمين، وآن له أن ينظر فيما فتحه نظر تنظيم وتدبير ويرتب أمور البلاد التى فتحها ليوهن عزم الفرس ويقضى على أملهم فى استعادة شىء مما فقدوه، فبعث مسالحه وعماله لجباية الخراج وحماية الثغور[١].

خطبة حكيمة حازمة: أراد خالد أن يتقدم إلى الفرس وأن يعذرهم من نفسه بعد ما صدمهم مرارًا وعرفوا حدته ويمن نقيبته لعل منهم من يثوب إلى رشده فيعطى بيده فيأمن ويأمن قومه، كما أراد أن يمر عيشهم ويوهن

(١) راجع ذلك فى الطبرى ١٨/٤.

عزائمهم فبعث إليهم بكتابين أشد من الصواعق وأمر على نفوسهم من كل مالاقوه منه: أحدهما للخاصة والآخر للعامة وقال لمرة الحيرى حين بعثه لملوك فارس: اذهب إليهم فلعل الله أن يمر عيشهم أو يسلموا أو ينيبوا. وهذا نص كتابهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم» «من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس أما بعد فالحمد لله الذى حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك بكم كان شراً لكم فادخلوا فى أمرنا ندعكم وأرضكم ونجوزكم إلى غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».

وقال لهزقيل حين وجهه إلى المرازبة اللهم أزهق روحهم. وهذا نص كتابهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم» «من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس أما بعد فأسلموا تسلموا وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر».

وفى هذا الوقت الذى سيطر فيه المسلمون على ما دون دجلة كان أهل فارس بموت أزدشير مختلفين بشأن من يلى الملك فيهم، ولم يكن لهم هم إلا المدافعة عن بهر سير (وهى إحدى المدائن التى سميت بها مدائن كسرى) فلما أن جاءتهم كتب خالد أحبوا أن يفرغوا من تنازعهم وأن يجمعوا على رجل يختارونه فولوا عليهم الفرخزاذ بن البندوان (ولم يكن من بيت الملك) إلى أن يجدوا من آل كسرى من يجتمعون عليه.

ولما استقام لخالد أمره واطمأن على الثغور استخلف على الحيرة القعقاع ابن عمرو سار لإغاثة عياض بن غنم الذى بعثه أبو بكر لفتح العراق من أعلاه فسلك الفلوجة حتى نزل بكربلاء فأقام بها أياماً ثم نادى بالرحيل حتى انتهى إلى الأنبار.

الأنبار

لما وصل خالد إلى الأنبار على مقدمة جيشه وكأن أهلها قد تحصنوا وخندقوا على أنفسهم طاف بالخندق وتوًّا أنشب القتال وقال لرماته: «إنى أرى أقوامًا لا علم لهم بالحرب فارموا عيونهم ولا توخوا غيرها» فأصابوا فيها ألف عين ثم عمد إلى الإبل العجاف فى جيشه فنحرها ورمى بها فى أضيق مكان فى الخندق فأفعمه ثم اقتحمه على جسر من تلك الرذايا (الضعاف) فطلب قائدهم الصلح على أن يخليه ويلحقه بمأمنه فى جريدة خيل ليس معهم من الأموال والمتاع شىء فأجابه خالد إلى طلبه وجاء من حولها فصالحوه ثم قصد إلى عين التمر.

عين التمر[1]

كان فى عين التمر مهران بن مهرام جوبين فى جمع عظيم من الفرس، وعقة بن أبى عقة فى جمع عظيم من التمر وتغلب وإياد ومن لف لفهم وحين سمعوا بمسير خالد إليهم قال عقة لمهران: «إن العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالدًا قال: صدقت. لعمرى أنتم أعلم بقتال العرب وإنكم لمثلنا فى قتال العجم» فخدعه وورطه واتقى به واعتصم هو بحصنه.

نزل عقة لخالد على الطريق وقدم خالد على تعبئة فحمل على عقة وهو يسوى صفوفه فاحتضنه وأسره وانهزم جنده وأمعن المسلمون فى أسرهم ولما علم مهران بالهزيمة هرب فى جنده من غير قتال والتجأت فلول جند عقة إلى الحصن فاستنزلهم خالد بلا أمان وقتلهم جميعًا وغنم المسلمون كل ما فى الحصن ووجد خالد فى بيعتهم أربعين غلاما يتعلمون الإنجيل. فقال ما أنتم؟ قالوا: رهن، فقسمهم فى أهل البلاد: منهم نصير أبو موسى بن نصير وسيرين أبو محمد بن سيرين وحمران مولى عثمان رضي الله عنه، وغيرهم ممن أعقب رجالا كان لهم شأن فى دولة الإسلام.

---

(١) عين التمر بلدة قريبة من الأنبار غربى الكوفة على طرف البرية.

دومة الجندل

أحرز خالد هذه الانتصارات العظيمة وعياض بن غنم لا يزال يحاصر دومة الجندل فكتب إلى خالد يستمده فكتب إليه خالد أخصر كتاب عرف: «من خالد إلى عياض إياك أريد».

سار خالد إلى دومة وقد تجمعت بها جموع كثيرة من نصارى العرب ولما بلغهم دنو خالد منهم دب الرعب إليهم وقال لهم أحد رؤسائهم أكيدر ابن عبد الملك: «أنا أعلم الناس بخالد لا أحد أيمن طائرًا منه ولا أحدَّ فى حرب ولا يرى وجه خالد قوم أبدًا، قلوا أو كثروا إلا انهزموا أطيعونى وصالحوا القوم» فأبوا عليه فقال: لن أمالئكم على خالد فشأنكم فخرج لطيته فبعث إليه خالد من جاء به فضرب عنقه جزاء غدره ونقضه العهد.

سار خالد حتى نزل بدومة وعليها الجودى بن ربيعة ورؤساء القبائل التى جاءت لنجدتهم فجعلها بين عسكره وعسكر عياض فكانت الهزيمة على أهل دومة ولم ينج من القتل منهم إلا بنى كلب وكانوا حلفاء تميم فأجارهم عاصم ابن عمرو التميمى.

الحصيد والخنافس

أقام خالد فى دومة قليلا ثم عاد إلى الحيرة، لأن إقامته أطمعت الأعاجم فى استرداد ما فقدوه وإعادة الكرة على المسلمين، وكذلك ظنها عرب الجزيرة فرصة للثأر لمن قتل منهم فى عين التمر، فأرسل خالد سريتين إلى الحصيد والخنافس (بالقرب من الأنبار) فأوقعتا بمن تجمع فيهما من العجم والعرب.

المصيخ

انتهى خبر الحصيد والخنافس إلى خالد فواعد قواده ليلة يجتمعون فيها إلى المصيخ فتوافروا فى موعدهم فبيتوا المجتمعين هناك وأناموهم وامتلأ بهم الفضاء كأنهم غنم مصرعة.

الثنى والزميل

سار خـالد إلى الثنى والزميل ورتب الهجـوم عليهما من نواح ثلاث كـما فعل بالمصيخ وشكل بمن اجتمع فيهما فلم يفلت ممن اجتمع بالثنى مخبر وقتل ممن اجتمع بالزميل مقتلة لم يقتلوا قبلها مثلها.

الفراض

قصد خـالد الفراض (وهى تخوم الشـام والعراق والجزيرة) ليحـمى ظهره ويأمن من أن تكون وراءه عورة واجتمـعت على المسلمين هناك جيوش الروم والفرس والعـرب وعبرت الفرات إليهم واقـتتلوا قتالا شـديداً طويلاً وحقت الهـزيمة على جـيوش المؤتلفـين وقتل المسلمـون منهم نحوًا من مـائة ألف. وكانت هذه الموقعة آخر حروب خالد بالعراق.

حج خالد

أقام خالد على الفرات عشرة أيام ثم أذن بـالرحيل إلى الحيرة لخمس بقين من ذى القعدة من السنة الثانية عشرة وأمـر عاصم بن عمرو أن يسير بالجيش وأظهـر أنه سائر فى السـاقـة، ولكنه مضى إلى الحـج فى عدة من خـاصتـه يعتسف البـلاد حتى أتى مكة بالسمت فتـأتى له من ذلك ما لم يتـأت لدليل ولا ريبال فكانت غيبته عن الجند قصـيرة، فما توافى إلى الحيرة آخرهم حتى وافاهم مع صـاحب الساقـة فقدمـا معًـا، ولم يعلم الجند بحجـه حتى رأوه وأصحابه محلقين رءوسهم ومقصرين.

ماذا بعد الحج

علم أبو بكر بحجـة خالد وتركه للـجيش وهو الخبـير بأثر ذلك فى جنده وجند أعدائه فـأكبر ذلك واعـتده إعجابًـا منه بنفسه وبما أتيح له من انتـصار واستهانة لشأن عدوه فأرسل إليه كتابًا قاربه فيه وباعده وهنأه بحجه وعاتبه فى ذلك الوقت أرسل أمـراء المسلمـين الذين وجـهوا لفـتح الشـام إلى أبى بكر

obeikandi.com

يستمدونه فرأى أن يصيب غرضين بحجر فـيعاقب خالدًا ويظهر عتبه عليه فى صورة محسة ويرسل مددًا ونجدة للمسلمين ويرمى الروم بالأسد الذى رمى به فارس فـينسيـهم وساوس الشيطـان ويزلزل عرشهم به كـما قـوض به عرش الأكاسرة فكتب إليـه: «أن سر حتى تأتى جموع المسلمين باليـرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا وإياك أن تعود لمـثل ما صنعت فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجـيك، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك، فليهنأك أبـا سليمان النية والحظوة فـأتمم يتمم الله لك ولا يدخلنك عجب فتـخسر وتذل وإياك أن تدل بعمل فـإن الله له المن وهو ولى الجزاء» وقد ساء ذلك خالـدًا ونسبه إلى عمر بن الخطاب ولكن لم يسعه إلا أن يسارع بالسفر إلى الشام ويبادر بامتثال أمر الخليفة.

أقام خالد فى العراق سنة وشهرين مـن المحرم سنة اثنتى عشرة إلى صفر من السنة الثالثة عشرة كان له فيها من الوقائع زهاء خمس عشرة موقعه وفى جميعها يصادمه عدوه بأضعاف جيشه ومع ذلك فقد كان فى كل هذه المواقع التى صدم فـيهـا جيوش الفـرس والروم والعرب المنتـصرة القائـد المظفر لم تسقط له راية ولم ينثن سيـفه عن ضريبته وفعل فى سنتـه هذه ما لم يفعله أكبر قائد فى مـثل جنده حتى لقد كان اسمه يسبقـه إلى كل موقعة أرادها، وكانت انتصاراته الرائـعة فتحًا ولم تكن غزوا فكان يترك فى كـل بلد يفتحه حاميـة لئلا يؤتى من خلفه ويقيم فيـه أميرًا يلى أموره وآخر يجـبى خراجه وكانت شدته وحدة سيفه على المقاتلين يقابلها رحمة وعدل ومنعة للفلاحين حـتى عرفـوا له ذلك؛ فكانوا له، وآثروا حكمـه على حكم الفـرس الذين استذلوهم واستعبدوهم.

ويظهر لـنا عظيم ما قام به خـالد فى سنته من فـتوح مـا قاله ابن الهـيثم البكائى عن أبيه: «كان أهل الأيام من أهل الكوفة يوعدون معاوية عند بعض الذى يبلغهم ويقولون: ما شاء مـعاوية؟ نحن أصحاب ذات السلاسل -وهى

أولـى وقائـع خالـد فى العراق- ويسمون ما بينها وبين الفراض ما يذكرون ما كان بعد احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل»[1].

فتح الشام

كان البـدء فى فتح الشام مـتأخراً عن الفـتح فى العراق فـفى أواخر السنة الثانيـة عشـرة اهتم أبو بكر بالشام واعـتزم الجد فى أمـر الروم فعـقد الألوية الأربعة من كبار قواده وهم:

١- يزيد بن أبى سفيان. ٢- شرحبيل ابن حسنة.

٣- أبو عبيدة بن الجراح. ٤- عمرو بن العاص.

وعين لكل قائد منهم الطريق التى يسلكها والجهـة التى يغزوها ويليها بعد الفتح، فجـعل ليزيد[2] دمشق، ولشـرحبيل الأردن، ولأبى عبـيدة حمص، ولعمرو بن العاص فلسطين.

سار الأمـراء حتى وصلوا الشـام. ولما علم الروم بنزولهم كاتـبوا «هرقل» وكان بالقدس فخرج عنها إلى حـمص وعلم بتفرق جنود المسلمين على أربعة من القواد فأراد أن يشغل كل قائد عن غيره من بقـية القواد وأن يضعفه عمن يكون بإزائه فـأرسل إلى كل قائد أضـعـاف ما مـعه من الجند لكثـرة جنده، وفضـول رجاله. ولما علم قـواد المسلمين بذلك رأوا التـريث حزمـا ففـزعوا بالكتب وبالرسل إلى عمرو وإلى أبى بكر أن ما الرأى؟ فـأجابهم عمرو: بأن الرأى لمثلنا الاجتـماع وذلك أن مثلنا إذا اجتـمع لن يغلب من قلة، وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا فى عدد يقرن فيـه لأحد ممن استقبلنا، وأعد لنا لكل طائفة منا «فاتعدوا اليـرموك ليجتمعوا به ووافاهم كـتاب أبى بكر بمثل مشورة عـمرو بأن اجـتمـعوا فـتكونوا عسكـراً واحداً. ولم يؤت مـثلكم من قلة، واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم بأصحابه.

---

(١) الطبرى (٣/ ٢٧، ٤٠).

(٢) وهم على هذا الترتيب فى خروجهم للشام فكان يزيد أول الأمراء خـروجًا وهؤلاء القواد قرشيون ما عدا شرحبيل ابن حسنة فإنه كندى أو أزدى وحسنة أمه -راجع الطبرى (٤/ ٣٩).

بلغ هرقل ذلك وعرف أن جيش المسلمين فيه حدهم وجدهم. وأن المعركة التى ستدور بينهما معركة فاصلة؛ فكتب إلى قواده أن اجتمعوا لهم وانزلوا بالروم منزلا واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب فنزلوا الواقوصة[1] وهى على ضفة اليرموك وصار الوادى خندقا لهم وهو لهب لا يدرك وأراد قواد الروم أن يستفيق عسكرهم ويأنسوا بالمسلمين وترجع إليهم أفئدتهم عن طيرتها حين يرون قلة المسلمين وكثرة جموع قومهم.

ولما نزلوا منزلهم هذا انتقل المسلمون عن معسكرهم فنزلوا عليهم بجذائهم على طريقهم وليس لهم طريق إلا عليهم فقال عمرو: «أيها الناس أبشروا حصرت والله الروم وقلما جاء محصور بخير، فأقاموا بإزائهم وعلى منفذهم صفر وشهرى ربيع لا يقدرون من الروم على شىء ولا يخلصون إليهم، الواقوصة من ورائهم والخندق من أمامهم وكلما خرجوا خرجة نال المسلمون منهم.

كان المسلمون حينما رأوا جموع الروم الكثيفة استمدوا أبا بكر وأعلموه الشأن فقال: حين بلغه ذلك: «خالد لها».

والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد «فكتب إليه واستحثه فى السير لإغاثة المسلمين بالشام وأن يخلف على العراق المثنى بن حارثة فى نصف الجيش ويسير هو فى النصف الثانى فإذا فتح الله على المسلمين بالشام رجع إلى عمله بالعراق فانجذب بمن استخلص من جند العراق وسار حثيثًا حتى وجى فرسه وصادف قدومه على المسلمين وصول مدد كبير للروم فاستبشر المسلمون بخالد وفرح الروم بمددهم. وكانت جنود الروم عظيمة متكاثفة بلغت أربعين ومائتى ألف على ما رواه الطبرى بينما جنود المسلمين كانت حوالى ستة وثلاثين ألفًا.

---

(١) الواقوصة: واد بالشام فى أرض حوران نزله المسلمون أيام أبى بكر على اليرموك لغزو الروم. واليرموك واد بناحية الشام فى طريق الغور فى نهر الأردن ثم يمضى إلى البحيرة المتنة -معجم البلدان.

قدم خالد فوجد أمراء المسلمين يقاتلون الروم على تساند فعسكر هو أيضًا على حدة وصلى بجنده ونازلوا الروم ونالوا منهم وألجئوهم إلى خنادقهم فلزموهما عامة شهر ثم حربوا المسلمين وخرجوا للصدمة الكبرى فى تعبئة لم ير الراءوون مثلها قط وأحسن المسلمون بخروجهم فحردوا وأرادوا الخروج متساندين فلم يرق ذلك فى نظر خالد، إذ كيف يقاتلون قوما مجتمعين على رأى وفى نظام وتعبئة وهم على تساند، لأن فى ذلك من الوهن واختلاف الرأى وتجزئ قوة المسلمين ما يطيل أمد القتال ولا ينيلهم من عدوهم فالتفت إلى قواد المسلمين وقال لهم: هل لكم يا معشر الرؤساء فى أمر يعز الله به الدين ولا يدخل عليكم معه ولا منه نقيصة ولا مكروه؟ فقالوا نعم؛ فقام فيهم خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة على تساند وانتشار، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى، وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبته. «قالوا: هات، فما الرأى؟» قال: إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا سنتياسر ولو علم بالذى كان ويكون لقد جمعكم. إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما غشيهم وأنفع للمشركين من إمدادهم ولقد علمت أن الدنيا قد فرقت بينكم، فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجند ولا يزيده عليه إن دانوا له إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ، هلموا فإن هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له ما بعده إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وإن هزمونا لن نفلح بعدها، فهلموا فلنتعاور الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غدًا، والآخر بعد غد، حتى يتآمر كلكم، ودعونى إليكم اليوم، فأمروه وهم يرون أنها كخرجاتهم، وأن الأمر أطول مما صاروا إليه[1].

(١) الطبرى (٤/ ٣٢).

عبى خالد الجيش تعبئة لم تعبئـها العرب قبل ذلك فجعله نحواً من أربعين كردوسا وقال: إن عدوكم قد كثر وطغى وليس من التعبئة تعبئة أكثر فى رأى العين من الكراديس وجعل على كل كردوس رجلا يأتمر بأمر من فوقه وجعل له طليعـة وقاضيًا وقارئًا ليـقرأ عليهم سورة الجـهاد «الأنفال» كمـا كان يفعل النبى ﷺ من بعد بدر عند لقـاء العدو وصاحب أقباض (مـيرة) وواعظًا كان يسـير فى الجـيش ويقف على الكراديس فيـقول: «الله الله إنكم ذادة الـعرب وأنصـار الإسـلام وإنهم ذادة الروم وأنصـار الشـرك، الـلهم إن هذا يوم من أيامك اللهم أنزل نصرك على عبادك» أمر خالد مجنبتى القلب أن ينشبا القتال وكان عليـهما القعقـاع بن عمرو وعكرمة بـن أبى جهل فخرجـا فى حماس وأنشبا القتال والقعقاع يرتجز:

يا ليتنى ألقاك فى الطراد:

قـبل اعـتـرام الجـحـفل الوراد وأنـت فى حـلـبـــــتك الـوراد

وعكرمة يجيبه بقوله:

قـــد عـلمت بـهنكـة الجـــوارى أنى عـلى مـكرومـــة أحـــامى

وكـانت هذه الأراجيـز تقوم لـهم مقـام الموسـيـقى فى تحـمـيس الجند وتشجيعهم.

التحم الفـريقان، وتطارد الفرسان، وخـرست الألسن، وصمت الآذان إلا عن قعقعة السيوف وزئيـر الفرسان. ثم أمر خالد بالزحف ونهد بالقلب حتى كان بين خيل الروم ورجـالهم وكان مقاتلهم واسع المطرد ضـيق المهرب فلما وجدت خيلهم مذهبًا ذهبت تشتـد بهم فى الصحراء وأفرج لها المسلمون ولم يحرجـوها فذهبت وتفـرقت فى البلاد وأقـبل خالد والمسلمـون على الرجل ففوضهم فكأنما هدم بهم حائط فاقتحموا فى خندقـهم فاقتحمه عليهم فعمدوا إلى الواقوصة فهوى فيها كثير منهم بلغوا مائة وعشرين ألفًا سوى من قتل فى

المعركة وقد استمر القتال النهار كله ومعظم الليل ولم يطلع الصبح إلا وخالد فى رواق رئيس الجند وأصابوا كل ما فى عسكرهم وبلغ سهم الفارس ألفًا وخمسمائة درهم.

وأرسل أبو عبيدة الذى تولى القيادة العامة إلى عمر يبشره بالفتح وكانت هذه الموقعة أول فتح أتاه بعد وفاة أبى بكر بعشرين ليلة[1].

كان للكثير من شجعان المسلمين وفرسانهم أثر واضح فى الإقدام والصبر والثبات فهذا الزبير بن العوام كان أفضل من شهدها فقد اخترق صفوف الروم مرتين. وهذا عكرمة كان يقول: قاتلت مع رسول الله ﷺ فى كل موطن وأفر اليوم؟! ثم ينادى من يبايع على الموت؟! فيبايعه أهل النجدة والغناء من وجوه المسلمين وقاتلوا جميعًا قدام فسطاط خالد وهو فى وسط القلب حتى أثبتوا جميعًا جراحًا وقتلوا إلا من برأ منهم.

وكما كان لأهل الغناء مواقف مشهودة فى هذا اليوم كان أيضًا للنساء نصيب غير منزور فكن يقمن بسقى الماء وخرز السقاء ومداواة الجرحى واستنهاض الهمم واستثارة الحماس فى قلوب الرجال بل قاتلن فى بعض الجولات فقد قتلت خطيبة النساء أسماء بنت يزيد الأشهلية تسعًا بعمود خبائها[2].

انتهى خبر الهزيمة إلى هرقل وهو دون حمص فارتحل عنها وجعلها بينه وبين المسلمين وودع سوريا فقال: «سلام عليك يا سوريا سلاما لا لقاء بعده».

استشهد فى هذه الموقعة من المسلمين نحو من ثلاثة آلاف بينهم كثير من أهل النجدة والغناء وأصحاب رسول الله وقد شهد اليرموك منهم ألف بينهم نحو مائة ممن شهد بدرًا.

وممن استشهد الحارث بن هشام وعكرمة بن أبى جهل وعياض بن ربيعة. فلما أثبتوا دعا الحارث بماء ليشربه فنظر إليه عكرمة فقال ادفعه إلى عكرمة

(١) الطبرى (٤/ ٦٣) السيرة الحلبية (٣/ ١٦٣).
(٢) الطبرى (٤/ ٣٦).

فلما أخذه عكرمة نظر إليه عياض فقال ادفعه إليه فما وصل إلى عياض حتى مات ولا وصل إلى واحد منهم حتى ماتوا.

وفى أثناء الموقعة جاء البريد بوفاة أبى بكر وتولية عمر وعزل خالد عن الإمارة وتولية أبى عبيدة. فأخذ خالد كتاب عمر ووضعه فى كنانته ولم يذعه فى الناس لئلا تهن قوتهم، حتى إذا ما انتهت الموقعة سلم الكتاب لأبى عبيدة وسلم عليه بالإمارة وكانت هذه الموقعة من الوقائع الفاصلة فى تاريخ الشرق بين المسلمين والروم فقد تقلص سلطان القياصرة عن رقعة فسيحة وظهر سلطان الإسلام وتتابعت بعدها فتوح المسلمين فى بلاد بنى الأصفر.

وقفة تدبر: لا بد لنا من وقفة تدبر بعد هذه المعركة الفاصلة التى جمع فيها كل من المسلمين والروم كل ما استطاعوا وذلك أن جيش المسلمين كانت عدته نحوًا من أربعين ألفًا ينتصر نصرًا مؤزرًا على جيش فيه ما يزيد على خمسة أمثاله مزود بالعدد مدرب على الحروب حديث العهد بالانتصار على جيوش الفرس إن ذلك لشىء يلفت النظر حقًّا والأمر إذن لا يرجع إلى كثرة العَدد والعُدد، وإنما يرجع هذا الانتصار كما فى غيره من المواقع التى خاضها المسلمون إلى أسباب غير معروفة ولا مألوفة من قبل ومن أهمها:

١- أن المسلمين يقاتلون راجين إحدى الحسنيين: إما الشهادة والسعادة فى الآخرة، وإما الفوز والنصر فى الدنيا.

٢- الثقة بنصر الله وتأييده فهم يقاتلون وهم مطمئنون إلى النصر وهذا مدد وقوة لا يعادلها كثرة العدو.

٣- القيادة الماهرة البصيرة بالحروب المتطلعة إلى الاستشهاد وأنى ذلك لقواد الفرس والروم؟! فقد رأيناهم فى أكثر من موقعة يتركون ميدان المعركة ويهربون طلبًا للسلام وحبًّا فى الحياة يدل على ذلك ما كان يبعث به خالد إليهم من مثل قوله: قد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة.

وبانتهاء هذه الموقعة تنتهى الأعمال الجليلة والفتوح العظيمة التى تمت فى

عهد أبى بكر وكـان قطبها خالد بن الوليد، رحم الله خالدًا! فـقد كان العلم فى تاريخ أبى بكر رضي الله عنه.

جمع القرآن

كان القـرآن ينزل على رسول الله ﷺ منجـما فيـحفظه ويبلغـه للناس ويأمر كتاب الوحى بكتابته ويدلهم على موضع المكتوب من سورته فيكتبونه فى العسب واللخاف والرقاع وقطع الأديم وعظام الأكـتاف والأضلاع، ويوضع المكتوب فى بيت رسول الله ﷺ بعد أن ينسخ الـكتاب لأنفسهم منه صورة. وانقـضى عهده عليه الصلاة والسلام ولم يجمع القرآن كله فى مصحف واحد[1].

وكان من الصـحابة من يحـفظ القرآن كله فى حـياة رسـول الله ﷺ كابن مسـعود، وأبى بن كعب، ومـعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وكـثير غـيرهم من أجلِّهم أبو بكر رضي الله عنه كما كان منهم من يحفظ بعضه.

قبض رسـول الله عليه الصلاة والسلام والـقرآن مكتوب كله ومحـفوظ فى الصدور. ولما ولى الخلافـة أبو بكر وارتد كثير من العـرب ونشبت الحرب بين المسلمين والمرتدين قتل كثير من قراء الصحابة فى موقعة اليمامة فهال ذلك عمر ابن الخطاب فكلم أبا بـكر فى ذلك وبين له مـا يخشـاه من ضـياع القـرآن إذا استـحر القتل فى القـراء واقترح عليه جـمع القرآن. فتـردد أبو بكر أولا وبعد حوار مع عمر اقتنع بصواب رأيه وتجلى له وجه المصلحة فى ذلك، فأرسل إلى زيد بن ثابت، وهو من حفـاظ القرآن وكتاب الوحى وشـهد العرضة الأخـيرة للقرآن مع رسول الله ﷺ وكان مع ذلك عاقلا ورعا مأمونا غير متهم فى دينه، فلما جـاءه عرض عليه أن يقوم بجـمع القرآن فتردد وناقش أبا بكر وعـمر فى ذلك وما زال به أبو بكر حتى اقتنع وشرح الله صدره لمثل ما شرح الله له صدر أبى بكر وعمـر فشرع فى جمع القـرآن فكان يجمعـه من العسب[2] واللخاف

(١) هداية القرآن للمرحوم الشيخ حسين سامى.

(٢) العسب: جمع عسيب وهو جريد النخل كـانوا يكشطون الخوص ويكتبون فى الطرف العريض، واللخاف جمع لخفة، بفتح اللام وسكون الخاء وهى الحجـارة الرقاق، والرقاع جمع رقعـة وقد تكـون من جـلد أو ورق أو كاغد وقطع الأديم: قطع الجلد.

وغيرهما ويتحرى أن يكون جمعه مما كتب بين يدى رسول الله ﷺ ويتوثق فى الأخد بالمكتوب غاية التوثق فلم يكن يقبل شيئًا من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدى رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وفى ذلك يقول البخارى رحمه الله «حدثنا موسى بن إسماعيل عن إبراهيم ابن سعد حدثنا ابن شهاب عن عبيد بن السباق أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إلىَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد استحر (اشتد وكثر) يوم اليمامة بقراء القرآن وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف تفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر، قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لانتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله عليه الصلاة والسلام فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىَّ مما أمرنى به من جمع القرآن، قلت كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم» حتى خاتمة براءة. فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه[1].

ثم جمع القرآن على هذا النحو من صدور الحفاظ ومما كتب بين يدى رسول الله ﷺ بإشراف أبى بكر وعمر وكان جمعه فى عهد الصديق من أجل مناقبه وأفضل مزاياه قال على كرم الله وجهه: «أعظم الناس فى المصاحف أجرًا أبو بكر! رحمة الله على أبى بكر! هو أول من جمع كتاب الله».

(١) راجع فضائل القرآن للحافظ ابن كثير ففيه فصل بيان.

إدارة البلاد

قسم أبو بكر جزيرة العرب إلى ولايات جعل على كل منها أميرًا له إقامة الصلاة والفصل فى القضاء وإقامة الحدود فكان الوالى فى زمنه أميرًا وقاضيًا ومنفذًا. أما البلاد التى فتحت فى زمنه من العراق والشام فكانت الحرب لا تزال قائمة فيها ولذا كان أمراء الجند هم ولاة الأمر فيها.

ولم يكن له وزير، وإنما كان عمر يلى القضاء وأبو عبيدة أمينا لبيت المال. وظل بعد خلافته يشتغل بتجارته ستة أشهر ثم تركها؛ ليتفرغ لمصالح المسلمين واستنفق من بيت المال ما يصلحه ويصلح عياله.

وفاته

حُمَّ رضي الله عنه لسبع خلون من جمادى الآخرة، فصلى بالناس نيابة عنه عمر ابن الخطاب. وتوفى فى مساء الحادى والعشرين من جمادى الآخرة، ودفن فى حجرة عائشة بجوار رسول الله ﷺ وألصقوا لحده بلحد النبى ﷺ وجعلوا رأسه عند كتفيه عليه الصلاة والسلام يميل قليلاً إلى الجهة الشرقية.

وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام، وهذه المدة القصيرة الحافلة بجلائل الأعمال والفتوحات العظيمة تظهر لنا ما عرف عنه رضي الله عنه من قوة الإرادة ومضاء العزيمة والحرص الشديد على الاقتداء بالنبى ﷺ واقتفاء آثاره.

وهكذا تطوى صحيفة أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ وثانى اثنين إذ هما فى الغار. رحم الله أبا بكر، وجزاه عن الإسلام أحسن الجزاء.

●●●